

النظرية النقدية ، والتأويلات المتعمقة ، والبنوية الرمزية والفينومينولوجيا : أمثلة من سوسيولوجية الصور البصرية للنساء

Valerie Malhotra

فالوري ماهوترا

ترجمة/بومعيرة السعيد

مقدمة :

يقدم هذا العرض أربع اتجاهات نظرية في التحليل السوسيولوجي للفنون ووسائل الاتصال الجماهيري : اتجاه النظرية النقدية ، واتجاه التأويلات المتعمقة ، واتجاه البنيوية - الرمزية ، واتجاه الفينومينولوجيا . وسيتبع استعراض الأفكار العامة لكل اتجاه نظري ، بصفة موجزة ، بأمثلة عن كل اتجاه . وهذه ، هي التحليلات السوسيولوجية لصور النساء البصرية في وسائل الاتصال الجماهيري والفنون .

تقوم النظرية النقدية بتحليل العوامل التاريخية ، والاقتصادية ، والسياسية لكونها تؤثر في انتاجات الفنون والاتصال . الا أن سائر التحليلات التي تربط الفن بهذه السياقات لا ترتقي بمستوى التحليل الى درجة الوعي النقدي . فمثلا ، تعالج دراسة Zolberg (1983) لتجار الفن ، ديناميات السوق لكونها تؤثر في اللوحات الفنية الطليعية . ومع ذلك فهي لا تربط هذه الدراسة بالظروف السياسية والاقتصادية على أوسع نطاق . ولكن ، فان المنطق الأساسي لعملية التحليل يبقى هو نفسه بغض النظر عما اذا كان هذا التحليل قد تم اجراؤه وفق الحد الذي يقتضيه عمل المظهر النقدي . ان ما يجعل مثل هذا الاتجاه يصب فعلاً في حقل النظرية النقدية ، هو عندما يتم توضيح اثر القوة في العملية ، وعندما يتم تحديد التضمينات المتعلقة بالممارسة العملية ، فهذا يجعل مثل هذا الاتجاه النظري يدخل في سياق النظرية النقدية .

اما الاتجاه النظري الثاني ، الذي ينسب اساساً الى Adorn هو أيضاً ، يدخل في مجال النظرية النقدية . في هذا الاتجاه ، يتركز الاهتمام على عناصر وبنيات أشكال الفن أو على عروض الاتصال نفسها . فمثلاً ، قام Adorn بتحليل الأساس التناغمي والايقاعي لموسيقى كل من Schoenberg وStavinsky (1973) ، لأن مفتاح تفسيراته هو الإيقاع التقليدي للموسيقى الغربية ، وهي تتضمن بعداً تأويلياً . ولقد سميت ، هنا ، التأويل المتعمق ، لأنه يسبر اغوار الأشكال نفسها في تراث ما . وعندما يعمد المرء الى تحليل التأويلات المتعمقة ، فان تحليله في الواقع يكون موازياً للاتجاه النظري الثالث .

تركز النظرية البنيوية - الرمزية على تحليل الأجزاء الصورية والعلائقية للشكل المشهدي . ويمثل هذه النظرية باحثون ينتمون الى تيارين مختلفين : تيار البنيويين الفرنسيين (Levi Straws, Lacan, Barthes) وتيار التفاعلية الرمزية الأمريكية (Goffman, Hughes D. Duncan, Kenneth Burke) كما تشمل السيمولوجيا ، أيضاً . ويقوم التحليل في هذا الاتجاه ، على افتراض مؤداه أن المعاني مبنية على أساس اللغة ، وقواعد النحو ، والبلاغة ، والسيمولوجيا ، والتراكيب التي تشكل كلها أدوات تفسيرية أساسية . وحسب صياغة هذه النظرية ، فإن الأشكال اللغوية ، والروايات ، والدراما ، والأساطير ، والطقوس ، تلعب دوراً هاماً في التحليلات الرمزية ، وأصبحت ، أيضاً ، نماذج «تحليلية للعديد من الباحثين في هذا الاتجاه النظري العام . فمثلاً ، يرفع كل من Duncan, Goffman, Burke الدراما الى مستوى الاستعارة التفسيرية الكبيرة . وهكذا ، فإن النزعة الدرامية هي احدى أنواع التحليل البنيوي - الرمزي ، والاستعارة الأساسية لكامل النظرية البنيوية الرمزية هي اللغة . فحتى اللاشعور يتحدث الينا بلغة يمكن تفسيرها مدلولياً وفق المبادئ السيمولوجية (عزي 1985) . إن الاتجاه الرابع في سوسيولوجية الفن ووسائل الاتصال الجماهيري ، وهو الفينومينولوجيا . والأساس الوئيسي لهذا الاتجاه يتثل في معاشة وعي المدرك للفعل . وفي هذا المستوى من عالم الحياة ، كواقع اسمى يمكن ، من خلالها ، ادراك الفن ، فإن التحليل يبدو موازياً للنظرية النقدية دون أن يؤكد على القوة والممارسة العملية . ومن ناحية أخرى ، إن وصف بنيات عالم الحياة ينطلق من داخل وعي الشخص الذي يتواجد في عالم الحياة ، (انظر Wagner 1984) . وبطبيعة الحال ، فإن عالم الحياة هذا ، هو من البداية ، عالم العلاقات الذاتية المتبادلة . (انظر Schutz 1985) . إذ أن عالم الحياة اليومية يعمل بسبب وبقدر ما يشترك الأفراد فعلاً في التصنيفات المألوفة التي تسمح لهم بتوقع استجابات الآخرين وفهمها فهماً لائقاً . (Malhotra 1981) . ان نماذج وخبرات عالم الحياة العديدة يمكن اعتبارها ضرباً من التصنيفات المألوفة .

اما النوع الآخر للوصف الفينومينولوجي ، هو الخبرات الفعلية ذات الشكل الرمزي للفرد أو الأفراد . ويمكن للمرء ، في بادئ الأمر ، أن يربط بين عالم الحياة وتصنيفات ، وحالما يترك المرء هذا النوع من الادراك للمعاشة الواعية ، يستطيع ، آنذاك ، أن يربط بين مشاعره وتداعيه الفكري بالموضوع وبين المدلولات المتوفرة ثقافياً .

نقد تحليلات في سوسيولوجية الصور البصرية المبنية على الاتجاهات النظرية المذكورة

في هذا الفصل ، ينتقد العرض تحليلات سوسيولوجية معينة من سوسيولوجية الفن ووسائل الاتصال ، وعلى الخصوص ، تحليلات صور النساء البصرية . ويوصف كل مثال ، في بادئ الأمر ، حسب الاتجاه النظري المتبع بصفة صريحة أو غير صريحة . وبناء على هذا تقترح المجالات التي كان من الممكن توضيحها ، لو أن التحليل اعتمد على بقية لا المنظورات النظرية .

واذا كان لا يمكن ، في سياق هذا العرض ، تقديم تحليل كامل لكل مثال عن كل منظور نظري ، فان التوكيد ينصب على نوع النتائج التي يمكن أن تترتب عن مثل هذه الاتجاهات النظرية البديلة .

تحليل Stewart النقدي لصور النساء البصرية في مجلة Vogue :

ان تحليل Stewart لصور النساء البصرية في مجلة Vogue من 1940 الى 1980 ، مثال عن الاتجاه الذي يركز على اساس النظرية النقدية . (أنظر Adorno 1973 و 1983 Malhotra Malhotra) . فهي تتناول الكيفية التي تغيرت بها صور النساء تبعاً للوضعية الاقتصادية والسياسية لكل عقد . فخلال الاربعينات ، في مرحلة ما قبل الحرب العالمية الثانية واثاءها وبسبب الطلب على النساء في سوق القوة العاملة ، كانت النساء تصورن كمهنيات كفؤات ، ويعشن ، عادة ، بمفردهن . أما في الخمسينات ، فقد تغيرت هذه الصورة جذرياً ، اذ انتقلت خلفية الصورة من مكتب العمل الى المنزل . وأصبحت المرأة لا تعيش بمفردها ، وانما محاطة بالأطفال ، «والبنات» أو بجماعاتها من الصديقات اللاتي يسكن في نفس الحي بضاحية المدينة . وأدت الستينات الى احتكاك النساء بالرجال ، يظهرن من خلال الصور كرفاق ودودين ، ، وهذا ، انعكاساً للاهتمام بالتححر الجنسي في ذلك العهد . ولما كانت الحركة النسوية قد حققت تقدماً معتبراً في السبعينات ، أصبحت النساء يوصفن ، أكثر كمنافسات ومستفزات جنسياً . أما معاشة «الأختية» من قبل العديد من النساء اللاتي كن ضمن الحركة النسوية ، فلم تكن جلية في هذه الصور . وبدلاً من ذلك ، فقد ظهرت العلاقات الشهوانية بين النساء الى جانب التصورات السادية والماسوشية . وأصبح الرجال ، في الواقع ، ذلك العدو الذي يترصد في العتمة أو خلف حافة المباني ، وبشكل يوحي بالتهديد . وخلال الثمانينات أشارت Stewart الى أن النساء يظهرن نوعاً ما ، أكبر سناً وفي مواقع القوة والثروة ، بيد أن تحليلها لا يغطي العقد الحالي . ففي كل عقد ، نجد صور النساء في مجلة Vogue ، تعرض ما كان ينبغي أن يدركه النساء كدور ملائم لهن ، أو كما حدث في السبعينات ، كتحذير من عواقب الاستقلالية المفرطة .

ماذا يمكن كشفه من خلال صور مجلة Vogue باستخدام المناهج النظرية البديلة ؟ ان التأويلات المتعمقة على غرار تحليل Adorno قد تعني بأشكال وتقنيات العرض . فالصور توجد ، في المقام الأول ، في شكل مجلة صقيلة للنساء ، تدور مواضيعها حول الموضة . والمجلة هي مشهد ، ليس المقصود التأمل فيه ، وانما مشاهدته . وعلى هذا فان المقالات تقدم في شكل قصير ومركز لكي تجذب الانتباه بسرعة . وان المجلات موجهة الى الرفوف الخاصة بها في المحلات ، لكي تغري القراء بسرعة ، عن طريق صورة الغلاف وعناوين المواضيع الرئيسية . وبناء عليه ، فان الروايات تقدم مبتورة ومختومة بعبارة «يتبع» وبالتالي تدخل الصفحات الامامية الانيقة مشاهد جديدة من أجل رفع المبيعات عن طريق الاغراء ، والشكل الذي توجد فيه الصور مناف

للاعتاق . إذ يوجد من أجل أسر جمهور ما ولكي «يلي» على المرأة مفهوماً - ذاتياً كأن تكون «مسيرة للموضة» أو «غير مسيرة لها» . وتهدف المواضيع القصيرة الى اثارة حواسها . فحتى حاسة شمها تتعرض ، الآن ، الى الاثارة ، من خلال تجريبها لعينة العطر المعلن عنها في صفحات المجلة ، اثناء قراءتها . فالمواضيع قصيرة وسطحية بدرجة يتعذر معها تنشيط عقلها بواسطة القراءة التي يمكن أن تقوم بها . أبعد من هذا ، فان حافظة تفوقها ستكون تحت المراقبة . ومن خلال هذا السياق ، ان الصورة ، كوسيلة اتصال ، تستخدم في صور الموضة مثلما يستخدم الفنان المزيف البذلة المخططة . وضور الموضة هي بمثابة ذئب في جلد خروف ، لأنها تدل على تسجيل ما هو كائن فقط . ورغم ذلك فان الملايين من الدولارات تنفق من أجل خلق الصورة «المناسبة» وتلك هي الصورة التي تحقق البيع . فعارضات الأزياء يتم اختيارهن بدقة لابرار معايير الجمال السائدة . فهن شابات ، وواهات ، ونحيلات ، وعادة مسطحات الصدور . واذا ما الح المصمم على النهود البارزة ، فيتمتع ، آنذاك ، على العارضات ان تتعرض الى زرع هذه النهود بواسطة الجراحة السيليكونية . لأن صناعة عارضات الأزياء تجعلهن أكثر «قابلية للتسويق» (Glamour. May, 1986).

وراء كل صورة يقف فريق من المهنيين الذي يعني بالتجميل ، والاضواء والمؤثرات والإطار الخفي للصورة . كما يتم التدريب على جودة النور والعتمة ، وكذا وضعية الجسد وتعابير الوجه . ويقوم خبراء الفيلم باعداد مئات «اللقطات» الى أن يتوصلوا الى اللقطة الصالحة للانتاج الجماهيري ، فتختار ، وتدخل عليها اللمسات الأخيرة . اما بقية الصور «الواقعية» غير الصالحة للاستعمال ، فترمي في نهر «هودسن» كنفايات كيميائية . وكما هو الحال في عالم الطبيعة ، حيث يوجد فائض الجمال في حقل الزهور البرية ، يوجد في الواقع المصطنع للمجلة ، فائض النفايات المسمومة .

ان الاتجاه البنيوي - الرمزي من شأنه أن يعني بقواعد الصور ، للبحث عن ارتباطات المعاني والرسالة التي تتضمنها قواعد صور مجلة Vogue إبان السبعينات تتجلى في المثال التالي :

والان ، أزيح الغطاء الذي كان يحميك ، الان ، تقولين أنك ستتولين امرك بنفسك ، الان تقولين أنك متساوية مع الرجل ، فأنت الان ، معرضة للخطر . أنك كائن غريزي ، تشبهين الحيوان المتوحش ، الذي لم يعد تحت الحماية الأبوية . الان تدافعين عن نفسك في هجمة الشوارع ، حيث يترصد الكثير منا في خلعة لاغتصابك واسرك هل انت واثقة من أنك تريدين فعلا هذه الحرية ؟

ان جولة قصيرة في معايشة هذه الصور ، هو مثال توضيحي لبعض مظاهر تأثير هذه الصور ، التي يمكن حصرها بكيفية أفضل عن طريق منظور نظرية الفينومينولوجيا . اني كأمرأة في متوسط العمر ، تسعرت ، وانا أشاهد صور السبعينات باثارة ، وسرعان ما وجدت نفسي اتماثل مع النساء الفاتنات . وفي الصور ، لم تكن صليتي العضوية بسائر الشدييات غريبة

عن الحيوانات . ومع ذلك شعرت بالصدمة والخزي من جراء تضمين مؤداه ان هذا يرتبط بميولات نحو الحيوانية .

اني أشعر بالقلق والخوف ، انه احساس بالتشرد والتعريض ، واذا لم أكن حازمة بما فيه الكفاية ، سأصبح امرأة بشعة المظهر . واذا لم أكن متيقظة ، سأعرض اما للاغتصاب أو للقتل . اني شعرت ، في ذلك الحين ، بالتشرد والوحداية في شقتي الفاخرة . وسيطرت على نوبات الانتحار والكآبة . انه احساس يشبه الحلم المزعج . وليس هناك موسيقى ولا أصوات تواسيني . والان ، توجد موسيقى ، بيد أنها ضرب من الموسيقى المخدرة التي تسمع في محلات الموضة الرخيصة - صاخبة وايقاعاتها متكررة ، هل لهذه الصور تأثير ؟ فبالرغم من انني منظرية ناقدة ، لقد تخلصت هذه السنة من بعض وزني ، واعتنيت بحيايا (الا لأتخلى عنه في اللحظة الأخيرة) . ان الصور البصرية في مجلة Vogue قوية .

تحليل Brady البنيوية - الرمزية لفيديو الروك :

«انها تعمل بعناء من أجل المال» . She works hard for Money انطلاقة من المنظور السيمولوجي تعالج Brady تفاعل الكلمات والصور البصرية كنصوص متشابكة . وبعملها هذا ، فهي تبين النوعية «المرتبة» لنتاج شريط الفيديو الذي يبدو ظاهرياً في صالح «النسوية» - أي متعاطفاً مع محن الام العاملة ، التي تبدو ، أيضاً ، كأم عزباء . ويبرز تحليل Brady بوضوح كيف يشوه مثل هذا الترتيب الرسائل العلنية . انها دراسة الطريقة التي قد تعمل وسائل الاتصال من خلالها على امتصاص أو إضفاء طابع البعد الواحد على أية محاولة للنقد . ان ما يحدث في شريط الفيديو ، هو مماثل للطريقة التي يتم من خلالها «امتصاص» المحتوى النقدي أو الثوري لبعض الاغاني الشعبية في عملية التسوييق ، وقد عملت في معظم الأحيان ، الاغاني الشعبية مثل اغنية Bob Dylan «ان الزمن يتغير» Times are changing أو أغنية Gaye Martin «ماذا يجري» What is going on ، اما كمسكينات أو كوسيلة لامتناس المعارضة .

ان عرض Brady يقدم بعض التقنيات لرفع مستوى مثل هذا الوعي . فهي تعني بالاختلافات - بين ما يقال في الكلمات وبين ما يقال في الایاءة والرمز وفي تحريك المشاعر . فهي تشير الى أن المرأة المثلة ، والمرأة المغنية عاجزتان عن التأثير في الفعل . وحتى اثناء الرقص في الشوارع ، فان تمثيل دور النساء العاملات يتم داخل حدود الرقص المقبول والمبرمج ، اذ تحاكي ايماءات الراقصات النساء العاملات وهن ينظفن ارضية البيت أو يؤدين دور النادللات . فرقصهن الذي يرمز الى «اتجاه واحد» ، تفسره Brady على أنه مهم ، حقاً ، للفهم الذاتي . كما تحلل Brady استخدام المكان بمثابة اطار والراوي كدخيل عن هذا الاطار ، وتحلل ، كذلك ، سياق الأغنية حينما ظهرت لأول مرة في السوق ، ولاقت ترحيباً لكونها «تسوية» حتى من قبل

عن الحيوانات . ومع ذلك شعرت بالصدمة والخزي من جراء تضمين مؤداه ان هذا يرتبط بميولات نحو الحيوانية .

اني أشعر بالقلق والخوف ، انه احساس بالتشرد والتعريض ، واذا لم أكن حازمة بما فيه الكفاية ، سأصبح امرأة بشعة المظهر . واذا لم أكن متيقظة ، سأعرض اما للاغتصاب أو للقتل . اني شعرت ، في ذلك الحين ، بالتشرد والوحداية في شقتي الفاخرة . وسيطرت على نوبات الانتحار والكآبة . انه احساس يشبه الحلم المزعج . وليس هناك موسيقى ولا أصوات تواسيني . والان ، توجد موسيقى ، بيد أنها ضرب من الموسيقى المخدرة التي تسمع في محلات الموضة الرخيصة - صاخبة وايقاعاتها متكررة ، هل لهذه الصور تأثير ؟ فبالرغم من انني منظرية ناقدة ، لقد تخلصت هذه السنة من بعض وزني ، واعتنيت بحيايا (الا لأتخلى عنه في اللحظة الأخيرة) . ان الصور البصرية في مجلة Vogue قوية .

تحليل Brady البنيوية - الرمزية لفيديو الروك :

«انها تعمل بعناء من أجل المال» . She works hard for Money انطلاقاً من المنظور السيمولوجي تعالج Brady تفاعل الكلمات والصور البصرية كنصوص متشابكة . وبعملها هذا ، فهي تبين النوعية «المرتبة» لنتاج شريط الفيديو الذي يبدو ظاهرياً في صالح «النسوية» - أي متعاطفاً مع محن الام العاملة ، التي تبدو ، أيضاً ، كأم عزباء . ويبرز تحليل Brady بوضوح كيف يشوه مثل هذا الترتيب الرسائل العلنية . انها دراسة الطريقة التي قد تعمل وسائل الاتصال من خلالها على امتصاص أو إضفاء طابع البعد الواحد على أية محاولة للنقد . ان ما يحدث في شريط الفيديو ، هو مماثل للطريقة التي يتم من خلالها «امتصاص» المحتوى النقدي أو الثوري لبعض الاغاني الشعبية في عملية التسوييق ، وقد عملت في معظم الأحيان ، الاغاني الشعبية مثل اغنية Bob Dylan «ان الزمن يتغير» Times are changing أو أغنية Gaye Martin «ماذا يجري» What is going on ، اما كمسكينات أو كوسيلة لامتناس المعارضة .

ان عرض Brady يقدم بعض التقنيات لرفع مستوى مثل هذا الوعي . فهي تعني بالاختلافات - بين ما يقال في الكلمات وبين ما يقال في الایماء والرمز وفي تحريك المشاعر . فهي تشير الى أن المرأة الممثلة ، والمرأة المغنية عاجزتان عن التأثير في الفعل . وحتى اثناء الرقص في الشوارع ، فان تمثيل دور النساء العاملات يتم داخل حدود الرقص المقبول والمبرمج ، اذ تحاكي ايماءات الراقصات النساء العاملات وهن ينظفن ارضية البيت أو يؤدين دور النادللات . فرقصهن الذي يرمز الى «اتجاه واحد» ، تفسره Brady على أنه مهم ، حقاً ، للفهم الذاتي . كما تحلل Brady استخدام المكان بمثابة اطار والراوي كدخيل عن هذا الاطار ، وتحلل ، كذلك ، سياق الأغنية حينما ظهرت لأول مرة في السوق ، ولاقت ترحيباً لكونها «تسوية» حتى من قبل

الذهبي بوصفه دالا على الأسر والعبودية ، وعلى اعادة المرأة من قبل الرجل ، و المرأة بوصفها باغية ، كما يدل أيضاً على فكرة خاطئة تتعلق بالشهرة الدائمة ، والعادة السرية وكذا الاثارة الذاتية ، والتشويه الذاتي ، والعلاقة القائمة بين الجنس والمال (1962 Duncan) أن مواصلة تقفى أثر سلسلة مدلول مجوهرات النساء ، هو ، فعلا ، مسعى ذو أهمية معتبرة كانت (Deegan) قد بدأته بذلك . وتؤكد (Deegan) على أن محاكاة المجوهرات «الجيدة» ، هي أساليب لا حباط تأثيرات القوة والثروة ، الا أنني أشك في هذا ، لأن المجوهرات المقلدة تفضي الى نفس سلسلة دالات القوة والثروة .

وعلاوة على ذلك ، فان بحث معاني الدال يؤدي الى الارتباط عن طريق الاضداد . اذ يقول (Kenneth Burke) (ص 66 . 1969) ، ان الصور توحى عادة بتضمن أضدادها . فالنساء كعبيد يصبحن بعدئذ نساء شبيهات بمراقبي العبيد . لأن هذه الاعلانات تلقن اعتقاداً مؤداه أن قيمتهن تتوقف على نجاح رجالهن . وهذا شبيه بشخصية السيدة (McBeth) إذ يتم تشجيع النساء على دفع أزواجهن الى «تحقيق أرباح كبيرة» في سوق البورصة ، وربما أيضاً ، في مجالات مربحة مثل مجال الاسلحة العسكرية . ان صور النساء اللاتي يتحلين بعقود ذهبية ، هي صور شبيهة ، فعلا ، بالأفاعي السامة ، وبامكانها اثاره الاستياء والعداء حبال النساء كما تم التعبير عنه في أعمال فنية مثل عمل Dekoonig . (أنظر Mathews) وقد يقودنا Hugh Duncan, Veblen الى أبعد من ذلك ، أي الى التحليلات مثل تحليل Deegan ، مذكراً ايانا بالاستهلاك المظهري كنتيجة عامة لمكانة اجتماعية مزعزعة .

ان تحليل الفينومينولوجيا المتعمقة لتأثير مثل هذه الجواهر ، هو ، حقاً ، جدير بالاهتمام . اني أود أن أفهم جيداً لماذا ، سأظل مسرورة جداً ، اذا ما أهداني معجب ما عقداً ذهبياً أو قطعة ماس تفوق القيروط الواحد ، بالرغم من قراءتي لعرض Deegan وموافقتي اياها ، أساساً ؟ لماذا اشعر بأن قدرتي على التحلي بمثل هذه المشاعر ، هي بقايا الرأسمالية الأبوية في وعي ؟ أم أنها ، بالأحرى نقائص انسانية عامة ؟ أم هي ، ربما ، حب الجمال وتملك الأشياء الرفيعة التي نشأت مع انبهار الطفولة الزجاجية وبالسماء المليئة بالنجوم ؟ أم أنه ينبغي علينا بالأحرى ، سيما أولئك الذين يريدون احداث التغير الاجتماعي ، ان نفرق السوق بمجوهرات مصطنعة وبالتالي نضعف استظهار المكانة الاجتماعية للنخبة الحاكمة .

تطبيقات في سوسيولوجية الفنون : تحليل Balfe النقدي لمادونا مرحلة القرن
12 الى القرن 15 ، ونقد Mathews النسوي لفن Dekoonig

لقد تم تبيان أهمية كل منظور من المنظورات النظرية الأربعة في التحليل ، وذلك بأمثلة عن سوسيولوجية وسائل الاتصال الجماهيري . ويمكن كذلك ، تطبيق نفس أنواع التحليل أو

الأجراءات بالنسبة لسوسيولوجية الفنون ، ومن بينها نوعان لها علاقة بصور النساء البصرية ، سوف اتعرض لها بصفة موجزة .

كتبت Balfe (1985) تحليلاً نقدياً عن الصور المتغيرة للوحات ما دونا (مريم العذراء) بأن العصور الوسطى ، أي من القرن 12 الى غاية القرن 15 فصورة مادونا تغيرت من صورة امرأة راشدة ذات قوة وحزم الى صورة عذراء شابة وضعيفة . والتصنيف الدقيق الذي تقدمه Balfe لسيا الوجه المتغيرة ، وترتيب الصور بالنسبة للطفل والآخرين ، وكذلك ، وضعيات الجسد ، وهذا ابتداء من العصور الوسطى الى الوقت الحاضر كله يتسم بالأهمية والدقة على حد سواء . وهي تجادل من أجل إعادة النظر في «الأم» ، مؤكدة في ذلك على غياب صور الأمومة الملائمة ، في كل من عالم السياسة والدين . ويمكن تعزيز تحليل Balfe بواسطة جولة داخل التحليلات البنيوية - الرمزية والفينومينولوجيا .

ان الصور القوية المبكرة لمادونا اثارَت في نفسي ذكريات الطفولة كشاهدة . فعندما كنت طفلة ، كانت سائر النساء الراشديات ، تقريباً ، قويات البنية . ولم يبد عليهن الافتقار الى القوة والشدة بالمقارنة مع أنواع الرشيقات من نساء الوقت الحاضر . اني اتذكر ، وأنا أتواجد وسط جماعات منهن «كعضوات» في الكنيسة وفي اجتماعات «النقابة» احساساً مؤداه اني محاطة بالنساء اللائي صنعن ، فعلاً ، القرارات ، وخططن النشاطات الأساسية ، ووفرن الأطفمة الجيدة ، وقدمن العناية للمريض ، واعتنين بتربية الأطفال ، وبصفة موجزة كانت هؤلاء النساء تشاركن في سائر أنواع النشاطات الاقتصادية وبناء المجتمع المحلي . وكان أغلبهن يستلقي على الكراسي المستعملة في اجتماعاتهن . ومع ذلك ، فاني قد ترعرت وتعلمت وتغذيت ونشأت وأصبحت ما أنا عليه في احضانهن في اطار نشاطاتهن المحلية . وبطبيعة الحال ، لم يكن بإمكانهن ، آنذاك ، «التصويت» في الكنيسة . اذ كانت المصوتات أقل عدداً بكثير . وفي أغلب الأحيان ، كان الرجال ، النحيفي الأجسام يأتون قليلي العدد مرة كل سنة ، لكي يقرأوا ما قامت به النساء من أعمال . أن هذا الصنف من النساء مازال موجوداً اليوم ، ولكن صورتهن زالت . وبدلاً من ذلك ، اننا نرى اليوم نساء نحيفات ، وخجولات وأقل استقراراً ، يظهرن قلقاً بشأن التقدم في السن ويحجمن عن الانضمام الى «عضوات النقابة» لأنها رمز عملية الشيخوخة المفزعة .

ان التقييم النقدي الذي تقدمه Mathews بشأن صور النساء للفنان Dekoonig يكشف عن المقبولات السلبية التي تقدم المرأة كضحية ، ولكن تظهر النساء في حد ذاتهن عنيفات وحشيات ، معزولات ، تافهات وقاسيات . ان أوصافاً مثل هذه ، في رأيي تعمل على نشر مواقف عدوانية عنيفة لدى الرجال ، معززة في ذلك بعضهم وعداءهم حيال النساء في الوقت الحاضر . وعلاوة على ذلك ، فان Mathews تؤكد على أن Dekoonig من الرجال قد اخفقوا في الكشف عن هذه التأثيرات السلبية في عمله .

واذا ما تركنا جانباً ، لوحات مادونا المقدمة فان صور Dekoonig تظهر النساء شديداً وجد خطيرات وترى Mathews ان هذه الصور مقولبة خطيرة أيضاً ، وهي تتخذ موقفاً نقدياً ازاء Dekoonig لأنه لا يصور النساء كما يرغبن في أن يكنّ . وأنا متأكدة من صحة هذا ، ولو أن مفهومهما مثل هذا ، يحمل في طياته خطورة مراقبة الفنان من أجل ارضاء الأشخاص . فهناك ، مثلاً ، الكثير من الناس غير راضين على الطريقة التي أتبعها Goya لرسم كائنات انسانية في لوحاته عن الحرب . ولكن ما من ناقد جدي ، يمكنه ، اذن ، ان يستخلص انه كان ينبغي على Goya ان يضيف الطابع الرومانسي على لوحاته . النساء في حاجة الى فنان يكشف عن المظاهر الخفية في انفسنا ؟ لو ان Dekoonig قام فقط بوصف مثل هذه الأنواع في أشكال الرجال بالاضافة الى أشكال النساء ، لكان التأثير الشامل لعمله الفني مختلف تماماً . ومن ناحية أخرى ، فان الفنان يصور اللاشعور بالاضافة الى الشعور ، وان سائر الكائنات الانسانية قد تحمل في أعماق ذاتها مظاهر لمثل هؤلاء النساء الفظيعات .

يستطيع المرء بكل تأكيد أن يتفق مع اهتمامات Mathews اذ أن أواخر القرن 20 تتسم بارتفاع عام في العداء والخوف بين وفي أوساط ، النساء والرجال . اننا نشكل ثقافة متوحشة ، وهناك ما يبرر تخوننا من نموذج الطباع المنتشر في أوساط الجماهير في الرأسمالية المتقدمة . لقد كتب Richard Strives أخيراً حول الدرجات الكبيرة للغضب والعداء الجليين في أمريكا المعاصرة ، وهذا قد يكون كنتيجة طبيعية لا شعورية تولدت عن النظام البيروقراطي المفرط . (الآفة والاسطورة في الثقافة الحديثة . Evil and Myth in Modern Culture) انيؤكد ، مع ذلك ، على أن الخوف والعداء يتولدان لدى مشاهدي النساء الجميلات ، الكاملات والمثيرات للفرجة الجنسية . اللائي يتسمن في اعلانات التلفزيون أكثر مما تولده صور Dekoonig لأن هذه الأخيرة ، هي مجابهة مباشرة ومحاولة لاضفاء الطابع الشيئي على التأثيرات اللاشعورية لمثل هذه المقولبات المنتشرة حول النساء وبكل تأكيد ، فان النقد البنيوي والمدرک لعمل Dekoonig بالاضافة الى تحليل صور النساء ، التي تبدو في الظاهر ايجابية ، في وسائل الاتصال الجماهيري ، قد يكون ضرورياً لتعميق فهمنا لهذه المسألة الجوهرية .

الخلاصة

ان هدف هذا العرض هو تشجيع اتجاه ذي مناهج متعددة في سوسيولوجية الفنون ووسائل الاتصال الجماهيري . اذ ان تعقيد وتركيب التأثير الذي تمارسه وسائل الاتصال على الوعي يقتضي مثل هذا الاتجاه . وترويج التقليد في التفسير في سوسيولوجية الفنون سيفتح المجال أمام تحليلات تتجنب فهم الموضوع وتكون خارجة عنه ، أو تحول اهتمامنا عن فهم التأثير المميز لعمل فني ما . وبهذا المعنى ، قد تستحسن الفوضوية النظرية والمنهجية . لأنه كما أشار

Feyerabend

ان العلم هو مشروع فوضوي أساساً : والفوضوية النظرية هي أكثر انسانية ومحتمل ، ان تشجع على التقدم أكثر من يدائلها القانونية - النظامية . (ص 17 . 1975).

ان الاتجاه الثلاثي للنظرية في سوسيولوجية الفنون الموصوف في هذا العرض من شأنه أن يخفف من روح الفوضوية هذه وذلك بالتوكيد على أن أي تحليل لموضوع ثقافي سيكون ناقصاً بدون الارتكاز على الاتجاهات النظرية الأربعة ، أي النظرية النقدية ، والتأويلات المتعمقة ، والبنوية - الرمزية ، والفينومينولوجيا . ان الأمثلة التي قدمتها آنفا عن التحليلات (السوسيولوجية) لصور النساء البصرية في الفنون ووسائل الاتصال الجماهيري ، قد بينت الطريقة التي يمكن ، من خلالها ، لمثل هذه النظريات المتمايزة ان تخلق بصائر تفسيرية جديدة وهامة .